النكتة في التعبير بـ "على " دونما سواها للإشارة إلى تمكنه وانصبابه ورسوخه ، فإن الشيء إذا صب من أعلى لأسفل رسخ وثبت [٢٢].

لأن القرآن مستعل على القلب إذ القلب سامع له ، ومطيع يمتثل ما يأمر به ، ويجتنب ما ينهي عنه ، ومن هنا كانت " على " أبلغ من " إلى" ؛ ولأن " إلى" تدل على الانتهاء فحسب ، " وعلى" تدل على الاستعلاء ، وما استعلى على الشيء يضمن الانتهاء إليه[٢٣].

أما تخصيص القلب بالذكر وكونه مكان تلقي القرآن والوعي له فلنكت بديعة ولأسرار ـ أقصى ما في الوسع ـ الاهتداء لبعضها.

من هذه النكت والأسرار: معرفة القرآن ، والتخلق بخلقه ، والتنور بأنواره ، والتحلي بحقائقه ، والتمكن من تفهيمه للغير.

وهذا كله لن يكون إلا بنزول القرآن على القلب دونما سواه.

يقول شيخ زادة : "القرآن كلام الله تعالى وصفته القائمة به كساه كسوة الألفاظ المركبة من الحروف العربية ، ونزله إلى جبريل وجعله أمينا عليه لئلا يتصرف في حقائقه ، ثم نزل به كما هو على قلب رسول الله ﷺ ليتعرفه ، ويتخلق بخلقه ، ويتنور بأنواره ، ويتحلى بحقائقه ، ففهمه وتمكن من تفهيمة لغيره ، فهو ﷺ مختص بهذه الرتبة العلية والكرامة السنية من سائر الأنبياء ، فإن كتبهم أنزلت عليهم بالألواح والصحائف جملة واحدة ، فهي منزلة على صورهم وظاهرهم لا على قلوبهم"[٢٤].

(٢٢) الصاوي : ٤٤/١.
(٢٣) البحر : ٥١٣/١.
(٢٤) زادة: ٤٧٩/٣. الشهاب: ٢٦/٧.

*** من نكات وأسرار نزول القرآن على القلب الشريف :**

كونه بلسان عربي مبين ــ كما يقول العلامة **الزمخشري** : " تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه ، وتُفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كُلِّم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كُلِّم بغير تلك اللغة ؟ وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي"[٢٥].

ومن النكت: كون القلب موضع العقل والفهم والعلم وتلقي المعارف ، ومنها: كون القلب مكان الحفظ.

قال **الزمخشرى:** " خص القرآن بالذكر لأجل أن الذي نزل عليه ثبت في قلبه حفظاً حتى أداه إلى أمته ، فلما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظاً جاز أن يقال نزله على قلبك ، وإن كان في الحقيقة نزل عليه لا على قلبه.

وأُسند التنزيل إلى جبريل ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ .** ﴾ من أجل مهمة التحفيظ[٢٦].

ومنها : كون القلب موضع التمييز والاختبار أما سائر الأعضاء فمسخرة له فالقلب سلطان الأعضاء ، فكل شيء وصل للقلب وصل لسائر

---

(٢٥)الكشاف: ١٢٨/٣.

(٢٦) الكشاف: ٢١٢/٣، والشهاب: ٢١٢/١.

الأعضاء ، وحيث نزل على قلبه فقد تمكن من سائر بدنه فلا يطرأ عليه بعد ذلك نسيانه.

ورد أنه ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالآية يريد أن يقرأها بلسانه قبل أن يتلوها جبريل عليه ظاهراً حتى أُمر بعدم الاستعجال بالقراءة قال تعالى ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .﴾ القيامة ١٦ .(٢٧).

ومنها: أن القلب هو مكان تلقى الواردات ، وهو صحيفة البدن التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها ، وهو بيت الله.

لكل هذه الأسرار وغيرها خص القلب بنزول القرآن وحفظه.

(٥) أداة الميل في الإنسان .

من الصفات العامة للقلب أنه أداة الميل إلى الحق أو عنه.

قال تعالى في حق أمهات المؤمنين- رضوان الله عليهم ــ :

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَ جِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .﴾ التحريم ٤ .

* **سبب النزول :** روي أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها ، فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية القبطية فعاشرها في بيت حفصة ، فرجعت فوجدتها في بيتها ، فغارت غيرة شديدة ، وقالت: أدخلتها بيتي في غيابي وعاشرتها على فراشي ؟ ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضيا لها : إني حرمتها علي ولا تخبري بذلك أحداً ، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ، وكانتا متصافيتين وأخبرتها بسر النبي ﷺ ، فغضب رسول الله ﷺ ،

(٢٧) الصاوي:٢/١٥٠ ، انظر فتح الباري ، والأحاديث كتاب : التفسير، باب: أن علينا جمعه وقرآنه٨/٥٥٣ .

وحلف ألا يدخل على نسائه شهرا وأعتزلهن ، فأنزل الله ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله ...**﴾ التحريم١ [٢٨].

روى الطبري ــ بسند صحيح ــ عن ابن عباسﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاء ثم دخل على حفصة فقالت: مثل ذلك ، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه فنزلت ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله.....الآية** ﴾ التحريم١ .[٢٩]

وسواء أكان تحريم مارية أم تحريم العسل هو السبب فالغاية أن النبيﷺ استودع سره السيدة حفصة وأفشته للسيدة عائشة رضى الله عنها ، وعلى هذا جاء قوله تعالى﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما**﴾ وهو التفات من ذكر القضية إلى موعظة من تعلقت بهما ، فهو استئناف خطاب وجهه الله تعالى إلى حفصة وعائشة ؛ لأن إنباء النبي ﷺ بعلمه بما أفشته حفصة القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها.

ــ وعدم إفشاء سره ﷺ والمحافظة على حقوق الزوجية.

ــ وصغت: مالت: أي مالت إلى الخير قلوبكما.

يقال: صغى يصغى صغيا ، ويصغو صغوا ــ بالياء والواو ــ ،

وحقيقته : الميل الحسي ، يقال: صغى أي مال ، وأصغى: أمال ، ومنه أطلق أصغى بمعنى استمع ؛ لأن أصله: أمال سمعه أو أذنه ، ثم حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال.

---

(٢٨) أسباب النزول للواحدي : ص٣٢٥، ٣٢٩. وأسباب السيوطي : ص٣٠٥.

(٢٩) أسباب السيوطي : ص ٣٠٥.

*وفي الآية: حث على التوبة مما كان فيهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ حيث زاغت ومالت عن الحق قلوبهما لحبهما ما كره النبي ﷺ اجتناب أم ولده أو اجتناب العسل.

وقيل: مالت قلوبكما إلى التوبة .

وجواب الشرط محذوف للعلم به أي : إن تتوبا كان خيراً لكما إذ قد صغت قلوبكما حيث كان الصغو سابقاً [٣٠]

وهذه الآية تظهر مدار العتاب ، وأنه كان بسبب الميل ، الميل الذي كانت أداته القلب.

فالقلب دون سواه هو أداة الميل في الإنسان.

(٦) أداة الكسب .

من صفات القلب العامة أنه أداة الكسب والاعتقاد في الإنسان وعليه مدار المؤاخذة. قال تعالى: ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .﴾ البقرة ٢٢٥ .

من فضل الله على المسلم أنه أبان له ما عليه مدارُ المؤاخذة في الآخرة وما تركَنا هكذا ، بل فصل لنا الذي لا نُؤاخذ به.

ومن الأمور التي لا مؤاخذة فيها: اللغو وهو: الحلف من غير قصد كأن يقول المرء: والله لتأكلن ، والله لتشربن ونحو ذلك ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها ــ في قوله ﷻ : ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أُنزلت في قول الرجل: لا والله وبلى والله[٣١].

(٣٠) أنظر: التحرير والتنوير: ٣٥٦/٢٨، القرطبي: ١١٨/١٨ وأنظر القاموس : صغر.
(٣١) رواه البخاري كتاب: الإيمان باب: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ٤٦٤/١١.

أو أن يحلف على شئ يظن صدقه فيظهر خلافه ، فهو من باب الخطأ غير المتعمد ، ويمين اللغو يجرى مجرى اللغاء وهو صوت العصافير.

ورغم أن الله ﷻ بين أنه لا يؤاخذ العبد به إلا أنه من الأورع للمسلم أن يتركه لورود الوصف بالفلاح للمعرضين عنه فقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون ٣ . وذلك في معرض حديث القرآن عن المفلحين ، إذن فالذي نؤاخذ عليه ما دون اللغو وهو كسب القلب وعقده وتصميمه وعزمه ، كما قال تعالى في آية المائدة ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ المائدة ٨٩ .

فالعقد: العزم والقصد ، والنية.

قال **الشهاب:** "كسبت قلوبكم" عزمت عليه ، إذ كسب القلب عزيمته ونيته، وفيه دليل لما عليه الجمهور من أن أفعال القلوب إذا استقرت يؤاخذ بها[٣٢].

وأما حديث النبي ﷺ: **(إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا)** [٣٣].

فمحمول على ما إذا لم يستقر فإنه لا يمكن الانفكاك عنه.

قال **مجاهد:** كل يمين عقدها القلب فهي كسب له[٣٤].

فالقلب هو أداة الكسب ، ومحل النية ووعاء الاعتقاد ، وعليه الثواب والعقاب ، وكل عمل جاء من النفس من غير قلب فإنه ليس بمعتبر في

---

(٣٢) الشهاب: ٥٢٨/٢.

(٣٣) أخرجه: البخاري كتاب العتق ، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ١٢٠/٥ .
ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر ٣٢٧/١ .
وأخرجه غيرهما .

(٣٤) البحر: ٤٤٤/٢.

حكم الآخرة ، وليس بمؤاخذ صاحبه إن كان معصية ولا مثاب إن كان طاعة بدليل الآية .

(٧) الممتحن الممحص.

من الصفات العامة للقلب أنه هو الممحص الممتحن في الإنسان.

قال ﷻ: ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور .** ﴾ آل عمران ١٥٢-١٥٤.

من سنة الله في خلقه أنه يبتليهم بالفقر والغنى ، بالصحة والمرض ، بالعز والذل ، بالخير والشر، وعليه تتباين مواقفهم فيشكرون أو يكفرون. والآيات المتقدمة من سورة آل عمران نزلت في غزوة أحد التي شاء الله وقوع ما وقع فيها اختبارا وتمحيصا ، اختبارا لصبرهم وتمحيصا لسيئاتهم .[٣٥]

(٣٥) البحر: ٣٩٦/٣.

فقوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يظهر أن المحص هو ما في القلب .

والمحصُ: التخليص والتنقية ، والتمحيص: الاختبار والابتلاء.

والمحص هنا: الاعتقاد ؛ لذا قال: ما في قلوبكم ، ولم يقل : صدوركم ، وقد شاع استعمال القلب مع ذلك ، فيُقال: اعتقد بقلبه ولا تكاد تسمعهم يقولون : اعتقد بصدره ، أو آمن بصدره ، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ المجادلة ٢٢، وليس فيه كتب في صدورهم الإيمان.

نعم يذكر الصدر مع الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ... الآية ﴾ الزمر٢٢.

ومن هنا قال بعض السادات: **القلب** : مقر الإيمان ، **والصدر**: محل الإسلام ، **والفؤاد**: مشرق المشاهدة ، **واللب** : مقام التوحيد الحقيقي .

ولعل الآية على هذا تؤول إلى قولنا: ليبتلي إسلامكم وليمحص إيمانكم .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . ﴾ أي : بما في القلوب التي في الصدور ، فهي من الضمائر الخفية ، ووصفت بذلك لتمكنها من الصدور ، جعلت كأنها مالكة لها ، " فذات " بمعنى صاحبة لا بمعنى ذات الشيء ونفسه ، وفي الآية تنبيه على أن الله ﷻ غني عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لحكم يعلمها كتمييز المؤمنين أو إظهار حال المنافقين[٣٦].

فقوله ﷻ:﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ ﴾آل عمران ١٤١. تثبت تمحيص من الله للمؤمنين .

والآية الثانية : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تبين أن المُمَحَّص هو القلب لا غيره ، وذلك ــ أيضاً ــ ما جاء في سورة الحجرات:

(٣٦) الألوسي : ٤/٩٨.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الحجرات٣ .

ولما كان الامتحان هو الاختبار ، والله يعلم الأشياء أزلا حمل اللفظ على التمرين بعلاقة اللزوم أي : أنهم مَرَّن الله تعالى قلوبهم للتقوى ، أو المراد: ضرب الله تعالى قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى: أي التطهر، ويعلم أنهم متقون.

وعلى هذا فالامتحان هو الضرب بالمحن ، وهو استعارة من امتحان الذهب وإذابته ليخلص إبريزه من خبيثه وينقى ، أو المراد: أخلصها للتقوى(٣٧).

فالاختبار هو سبب المعرفة ولكن في جناب الحق يكون لازمة ، وهو تحقق التقوى بالمران أو بالتكاليف الشاقة ، أو بغير ذلك مما يليق بالله تعالى.

ومن هنا تدرك أن المبتلى في الإنسان هو القلب دون غيره.

(٨) موضع التحسين والتقبيح.

من الصفات العامة للقلب أنه موضع ومكان التحسين والتقبيح في الإنسان قال ﷻ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ الحجرات ٧ .

هذه الآية الكريمة يخاطب فيها الحق ﷻ المؤمنين المخلصين قائلاً: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي: بين أظهركم فعظموه ووقروه فإنه

(٣٧) الشهاب: ٨/٧٣، والألوسي : ٢٦/١٣٦.

أعلم بمص الحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم .[٣٨].

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ "لكن" هنا استدراكية من حيث المعنى. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف موقع لكن وشرطيتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً. قلت: هي مفقودة من حيث اللفظ حاصلة من حيث المعنى ؛ لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم فوقعت لكن في موضعها من الاستدراك ، وهذا مبني على تقدير أن يكون المخاطبون بقوله: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ من اعتمد على نبأ الفاسق إلى العمل بمقتضاه.

ويكون المخاطبون بقوله: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ المؤمنين الكاملين الذين لم يعتمدوا على كل ما سمعوه[٣٩].

فالتزيين هنا التحسين وليس إلا في القلب كما نصت الآية الكريمة ، وكما أن القلب هو موضع التزين فهو ــ أيضاً ــ موضع التقبيح.

قال ﷻ : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً .﴾ الفتح ١١-١٢.

أخبر الله تعالى في هاتين الآيتين بالأمر قبل وقوعه ، وحدث ما أخبر به سبحانه.

(٣٨) ابن كثير: ٤/٢٢٥.
(٣٩) الكشاف: ٣/٥٦٣، والجمل: ٧/٢٤٧.

ذلك أن قبائل غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل قد نزلوا حول المدينة وبايعوا رسول الله ﷺ على الخروج معه إلى عمرة الحديبية فتخلف معظمهم ، وكانوا يومئذ لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، وأعدوا للمعذرة بعد رجوع النبي ﷺ أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما يبيتوه في قلوبهم ، وفضح أمرهم من قبل أن يعتذروا فقال: سيقول ..... وقد أمر الله نبيه أن يقول لهم إن الله يفعل ما يشاء فإن كان أراد بهم نفعا نفعهم وإن كان أراد بهم ضرا ضرهم ؛ لأن استغفاره ﷺ الله لهم لا يكره الله الذي أبطل اعتذارهم ــ بنص الآية ــ بحرف الإبطال "بل" كان الله بما تعملون خبيرا.

ثم تأتى الآية الثانية مفتتحة بـ "بل" ﴿ **بل ظننتم** ﴾ فهي بدل اشتمال من جملة "بل ... الأولى" أي: خبيرا بما عملتم ومنه ظنكم أن لن ينقلب الرسول ﷺ والمؤمنون من ذلك السفر إلى عشائرهم وذوى قرباهم أبدا ، لكنكم اعتقدتم أن الرسول ﷺ ومن معه سيقتلون وستستأصل شأفتهم، وتباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم أحد ، وزين لكم الشيطان والنفاق ذلك الظن الخبيث في قلوبكم.

والتزيين والتحسين هو كناية عن قبول ذلك.

وإنما جعل ذلك الظن مزينا في اعتقادهم لأنهم لم يفرضوا غيره من الاحتمال ، وهو أن يرجع الرسول ﷺ سالما ، وهكذا شأن العقول الواهية، والنفوس الهاوية أن لا تأخذ من الصور التي تتصور بها الحوادث إلا الصورة التي تلوح لها في بادئ الأمر.

وإنما تلوح لها أول شيء لأنها الصورة المحبوبة ثم يعتريها التزيين في الفعل فتلهو عن فرض غيرها فلا تستعد لوقوعه ، ولذلك قيل: حبك الشيء يعمي ويصم.

فمكان تزين الشيطان هو القلب الذي انعقد على أمر واحد وحسن فيه وهو أمر إهلاكه ﷻ الذي منعهم من الذهاب معه حتى لا ينالهم ما سينال محمداً ﷺ (٤٠).

ولما تحدثنا عن مكان التزيين حري بنا أن تنسب فعل التزيين إلى صاحبه، ومن المواضع التي يصلح فيها نسبة التزيين إلى الرحمن وإلى الشيطان قوله ﷻ:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.﴾آل عمران١٤.

فمن قائل: إن المزين هو الشيطان ؛ لأن الله فضل على هذه الشهوات ما أعده للمتقين يوم القيامة.

ومن قائل: إن المزين هو الرحمن ﷻ لأن الكلام في طبيعة البشر وبيان أن الله أنشأ الناس وفطرهم على حب هذه الرغائب والمشتهيات ، ومثل هذا لا يجوز إسناده إلى الشيطان بحال وإنما يسند إليه الوسوسة وتزيين الأعمال القبيحة والخروج بهذه الشهوات عن الخط المستقيم الذي رسمه الإسلام عن طريق الإفراط أو التفريط ولذلك لم يسند إليه القرآن إلا هذا التزيين للأعمال.

قال ﷻ : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأنفال ٤٨ .

وقال أيضاً: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام ٤٣ .

أما حقائق الأشياء وطبائعها فلا تنسب إلا إلى الخالق الحكيم ، قال ﷻ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً.﴾الكهف ٧.

وقال ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ...﴾ الأنعام ١٠٨.

(٤٠) انظر: الوسيط : ٥/٩٩٢، ابن عاشور: ٢٦/١٦٠.

وهذا الذي رجحناه هو مقصود قول عمر بن الخطاب ﷺ : "**اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك**"[٤١].

(٩) محل الكلام ومنشؤه .

من صفات القلب العامة أنه محل الكلام ومنشؤه .

قال ﷻ : ﴿... **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** .﴾آل عمران ١٦٧.

وقال ﷻ : ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ الفتح ١١ .

تثبت الآيتان أن أصل الكلام في القلب ، وفي حال اتفاق اللسان مع القلب يكون الصدق ، وفي حال الاختلاف بين اللسان والقلب يكون الكذب والثنائية في الشخص الواحد ، وهو ما يسمى بالنفاق أو الكذب كخصلة من خصال المنافقين .

وآية سورة الفتح تبين أن الأعراب الذين هم حول المدينة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ثم قالوا للنبي ﷺ متلمسين العذر استغفر لنا مظهرين أنفسهم بمظهر المسيئين ، وهذا لم يكن من داخلهم ولا في اعتقادهم بل في اعتقادهم أنهم محسنون.

فالذي قالوه يغاير ما في قلوبهم فحجتهم داحضة حيث قالوا : ﴿ **شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا** ﴾ وهذا غير موافق للحق والحقيقة ، والحق والصواب أنهم خافوا على أنفسهم الهلاك الذي اعتقدوا حلوله بالنبيﷺ .

(٤١) أنظر : فيض الرحمن د٠ إبراهيم سلامة ١/ ٥٥.

وآية آل عمران ليست ببعيدة عن آية الفتح حيث يقول الله ﷻ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ آل عمران ١٦٧ .

هذه الآية نزلت ضمن آيات تحدثت عن غزوة أحد وما حل بالمسلمين فالمنافقون قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا فكان جوابهم : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. ثم يحكم الله عليهم بقوله ﷻ : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم يضمرون خلاف ما يظهرون ، لا توافق قلوبهم ألسنتهم.

وإضافة القول إلى الأفواه رغم أن القول لا يكون إلا بها من باب التأكيد والتصوير.

التأكيد على حد: ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ الأنعام ٣٨ .

والتصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود في أفواههم فقط .[٤٢].

وفي ذكر الأفواه والقلوب: تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم حيث أثبتوا أمرين ليس في قلوبهم شيء منهما:-

أحدهما: عدم العلم بالقتال.

والآخر : الاتباع على تقدير العلم به ، وقد كذبوا فيها كذباً بيناً حيث كانوا عالمين مصرين على ذلك الانخذال عازمين على الارتداد .

فالقول الملفوظ نفي منشؤه الذي لا ينفك عنه القول أصلاً وهو القلب[٤٣].

(٤٢) الشهاب ١٥٨/٣.
(٤٣) روح المعاني ١١٩/٤.

ولله در القائل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا .

إذن فأصل الكلام ومبدؤه هو القلب ، فإذا صدق اللسان مع ما في القلب كان الإيمان ، وإذا اختلفا يكون النفاق والعياذ بالله.

(١٠) محل نور البصيرة .

من الصفات العامة للقلب أنه محل نور البصيرة ، فكما أن نور العين هو الإبصار الذي به يدرك الرائي المرئي فإن البصيرة نور القلب وهي اللطيفة التي بها يرى المؤمن ويستبصر الأمور ، فكأن العين والقلب جوهران لطيفان خلق الله تعالى فيها آلتين للإبصار والاستبصار[٤٤].

فالبصيرة نور الإيمان في القلب ، والقلب معدن نور الإيمان ، قال ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ المجادلة ٢٢ .

وقال ﷻ:﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات ٧

وقال ﷻ : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ النحل ١٠٦ .

فاللهم نوّر بصائرنا بنورك ، واهدنا إلى الصراط المستقيم .

وبعد :

فهذا أبرز ما هداني الله إليه من صفات عامة لهذا الملك المطاع في الجسد ألا وهو القلب ، ولما كان القلب من عجائب صنع الله ﷻ فإن المتأمل في صفاته لن يعدم فوائده ونفائسه ؛ لأن القلب لا تنقضي عجائبه أليس هو وعاء القرآن الكريم .

(٤٤) الفخر: ٢/٥٩.

المبحث الثالث .

أقسام القلوب .

تنقسم القلوب باعتبار تناول القرآن الكريم لها إلى ثلاثة أقسام رئيسة[1]:

القسم الأول : القلوب السليمة .

وصفاتها متعددة منها:

١- الاطمئنان. ٢- الوجل. ٣- السكينة. ٤- الرأفة.

٥- الخيرية. ٦- الطهر . ٧-الإخبات. ٨- الخشوع.

٩- الإيمان. ١٠- التآلف. ١١- التقوى. ١٢- الإنابة.

١٣- الاهتداء . ١٤- القوة. ١٥- الليونة. ١٦- الفقه.

---

(١) لا تعارض بين هذا التقسيم وبين تقسيم الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان الذي يقول فيه: "القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمي ، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما" رواه ابن أبي الدنيا موقوف على حذيفة. أنظر الدر المنثور ٨٧/١

ومعنى القلب الأجرد: أي الأجرد مما سوى الله وسراجه مصباح الإيمان .

٢- والأغلف: قلب الكافر قال تعالى حاكيا عن اليهود ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ البقرة ٨٨ ، فهو داخل في غلافه فهو عليه غشاوة .

٣- والمنكوس: أي المكبوب ، كما قال الله تعالى ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم﴾ النساء ٨٨ أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه .

٤- والقلب الذي له مادتان: هو القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه ، فتارة يكون الكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون الإيمان أقرب منه للكفر .

انظر في ذلك إغاثة اللهفان ص١٦ بتصرف.

وأقول : لا تعارض بين التقسيم الذي في أعلا الصحائف وهذا التقسيم لأن الثلاثة هي الأربعة فالسلامة تساوي الأجرد ، والمرض يساوي الدوران بين مادتي الإيمان والكفر ، والموت يساوي الأغلف والمنكوس ، فليتدبر .

أما القسم الثاني : القلوب المريضة .

ومظاهر هذه الأمراض كائنة في هذه الصور:

١- الكفر ٢- النفاق ٣- القسوة. ٤- العمى.

٥- الغل. ٦- الريب. ٧- الغلظة ٨- الغفلة.

٩- الشتات. ١٠- الإنكار ١١- اللهو ١٢- الغمرة.

١٣- التأبي على الحق. ١٤- الاشمئزاز. ١٥- الحمية. ١٦- الإثم.

أما القسم الثالث : فالقلوب الميتة .

وهي القلوب التي أهملت حتى تمكنت الأمراض منها ففتكت بـــها حتـــى أسلمتها إلى الموت والفناء رغم حياة صاحبها حسياً.

ودونك التفصيل .

أولا: القسم الأول .

القلوب السليمة المقبولة .

وقبل الشروع في المقصود أحب أن أبين أن قلب النبي محمد ﷺ تسنم هذا القسم من أقسام القلوب ؛ لما رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود: "**إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد**" (٢).

ولنبدأ بدعاء خليل الرحمن في القرآن الكريم ، فنقول كان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي كان يدعو ربه أن يسلم قلبه ولا يسلمه إلا له ﷻ .

قال عز من قائل على لسان خليل الرحمن : ﴿ **ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون .إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾الشعراء ٨٧-٨٩.

وقد حقق الله له ذلك فقال سبحانه: ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم .** ﴾ الصافات ٨٣-٨٤ .

والسلم، والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة ، وذلك كما جاء في شأن الخليل عليه السلام فقد تعرى من الدغل الباطني ، وأما التعري من الآفات الظاهرة فمثاله قوله تعالى في شأن بقرة بني إسرائيل ﴿ **مسلمة لا شية فيها..**﴾ البقرة ٧١ .

والسلامة الحقيقية ليست إلا في الجنة إذ فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقم كما قال ﷻ :﴿ **لهم دار السلام عند ربهم ..**﴾ الأنعام ١٢٧ ، أي السلامة.

---

(٢) رواه أحمد ١/٣٧٩.

والسلام: اسم من أسماء الله تعالى قال ﷻ: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الملِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الحشر ٢٣ .

وُصف الله تعالى بذلك لأنه لا يلحقه العيوب والآفات التي تلحق الخلق.

والسُّلَّم: ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ، ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شئ رفيع كالسبب(٣).

هذه إطلالة معجمية سريعة على مادة سلم أما الآية الكريمة فلنا معها وقفة تحليلية نجتلي من خلالها معان ومعارف لا غنى عنها.

فقد جاءت هذه الآية ضمن دعاء طويل لخليل الرحمن كان آخره : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء ٨٧-٨٩.

أي : ولا تذلّني ولا تهني يوم تبعث الخلائق للحساب ، وهذا من باب هضم النفس وإلا فالله ﷻ قال في حقه:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ﴾ النحل ١٢٠-١٢٢.

ولا تخزني يوم يبعثون : يوم لا ينفع أحداً فيه مال ولا ولد إلا من جاء ربه في الآخرة بقلب طاهر زكى.

إلا: استثناء ، قيل: إنه متصل وقيل: إنه منقطع.

فمن فسره بالانقطاع : كانت " إلا "معناها "لكن" وعليه فهو استثناء من الفاعل وهو المال والبنون ومَنْ أتى الله بقلب سليم غيرهما.

وبعضهم جعله متصلاً وجعله استثناء من المفعول الذي يمكن تقديره "بأحد" .

(٣) أنظر الراغب ٢٣٩:٢٤١، وأنظر البصائر: ٣/٢٥٢.

و"مَنْ" في محل نصب أي : يوم لا ينفع مال وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ، ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم عن مرض الكفر والنفاق فضرورة نفع كل منهما بالإيمان.

وقيل: هو استثناء مما دل عليه المال والبنون دلالة الخاص على العام أعنى مطلق الغنى والكلام بتقدير مضاف ــ أيضاً ــ كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم وغناه سلامة قلبه ، وهو الغنى الديني كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه[٤].

فسليم إما بمعنى فاعل: أي سالم وخالص ، أو بمعنى مفعول ، أي بقلب أخلصه الله من الشرك والشك أو من التعلق بغيره ﷻ.[٥]

والمأثور عن ابن عباس ﷺ وغيره : أن القلب السليم : هو السليم من مرض الكفر والنفاق.

وقيل: السالم من الآفات والمكروهات كلها ، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وما يحبه ، وخشية ما يباعد عنه [٦].

وقيل: هو الخالي من العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها .

وقال سفيان: هو الذي ليس فيه غير الله ﷻ .

وقيل: هو الذي سلم من الشرك والمعاصي وسلَّم نفسه لحكم الله تعالى ، وسالَم أولياءه وحارب أعداءه ، وأسلم حيث نظر فعرف واستسلم وانقاد لله ﷻ وأذعن لعبادته ﷻ .[٧].

(٤) الألوسي: ١٠١/١٩.
(٥) زاده ١٥٨/٤ .
(٦) ابن رجب: ص ٢٨٦.
(٧) الألوسي ١٠١/١٩ .